

الفصل السابع

نماذج من العلماء الذين اتهموا بالردة

- ١- أحمد بن نصر الخزاعي
- ٢- أبو حيان التوحيدي
- ٣- محمد بن عبد الكريم بن أحمد
- ٤- محمد بن علي بن الحسن بن علي الميانجي
- ٥- الكياهراسي
- ٦- أبو نصر منصور بن علي بن عراق الجعدي
- ٧- إبراهيم بن عمر بن حسن بن رياط بن علي بن أبي بكر البقاعي
- ٨- ابن الأنبار الأندلسي
- ٩- أحمد بن إبراهيم أبو جعفر الأندلسي
- ١٠- صدقة بن الحسين أبو الفرج
- ابن الحداد البغدادي الحنبلي
- ١١- ابن زرقون شيخ المالكية
- ١٢- سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الأمدي
- ١٣- كنيز
- ١٤- محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد التلمساني
- ١٥- صدر الدين بن الوكيل وابن المرحل
- ١٦- أبو الحجاج جمال الدين الإمام الكبير الحافظ المزي

في هذا الفصل سنورد مجموعة مختارة من الوقائع أو النوازل التي تنبّه إلى استغلال بعض الحاكّمين في فترات مختلفة من تاريخنا لهذه العقوبة التي لا أصل لها، وتحويلها إلى سلاح أشهروه بوجوه معارضيتهم وخصومهم، بمن فيهم بعض كبار العلماء الذين تصدّوا لبعض الطغاة فنصحوهم وأمروهم ونهّوهم، فأخذت أولئك الجبابرة العزة بالإثم، وأشهروا على رقاب أولئك العلماء سيوفاً وضعها العلماء - أنفسهم - بأيدي أولئك الطغاة يقيمون بها معارضيتهم، والذين يحاولون الحد من سلطاتهم المطلقة واستبدادهم.

إنّ الأمة لم تتمكن من تفعيل ما شرع الله - تبارك وتعالى - من شورى. ولم تكتشف الآليات والأدوات اللازمة لتفعيل الشورى التي ألزم الله بها نبيّه المعصوم وأُمَّته من بعده إلزاماً لا مراء فيه، فحاول بعض العلماء الرّبّانيّون أن يؤدّوا شيئاً يسيراً مما كان يمكن للشورى أن تؤدّيه، فضاقت جبهة الحاكّمين بهم ذرعاً، فاستعملوا كل ما وقع تحت أيديهم من أسلحة لإسكات تلك الأصوات - القليلة - التي كانت ترتفع لكي تقي نفسها والأمة السقوط في جحيم الاستبداد، بمن فيهم أولئك الطغاة، فكان أولئك العلماء يقفون مواقفهم تلك: «معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون»، لكن أنّى للطغاة أن يفهموا ذلك؟! وإذا فهموا فأنّى لهم أن يطيقوه؟!

لقد حاول العلماء في تاريخنا أن يجعلوا من أنفسهم قوة مشاركة لرجال السلطة، ورديفاً لهم، ففسّروا «أولي الأمر» بالعلماء والأمرء، وحرصوا على أن لا يتركّوهم - وحدهم - بعد أن انتهى عصر الراشدين - الذين كانوا يجمعون بين الرؤية السياسيّة والسلطة، والقدرة الاجتهاديّة، مع الإرادة والدوافع التي تدفعهم إلى الوصول بالشورى، وبسائر الوسائل المتاحة، إلى معرفة مصالح الأنام. لكن أولئك الجبهة، الذين أفرزتهم الانقلابات القبليّة والصراعات الأسريّة، سرعان ما عزلوا العلماء الرّبّانيّين عنهم، واستقطبوا الانتهازيّين والنفعيّين والشعراء والمدّاحين الذين يرون في ذلك النوع من الحاكّمين مطايا لشهواتهم، وإشباع مطامعهم ورغباتهم.

وبابتعاد علماء الآخرة عن أولئك السلاطين والحكام تكررست فردية الحاكمين، وأحاطوا أنفسهم بعلماء السوء، ومدّوا لأنفسهم حبال الاستبداد، ولم يعدوا من المداحين من علماء السوء والشعراء من يزيّن لهم ذلك، ويغريهم بالإمعان فيه. وقد بلغ الأمر غايته حين صار بعضهم يرى في قول: «اتق الله» جرأة على سلطانه، وامتهاناً لهيبة الحكم، وجرأة على «ظل الله في الأرض» بحيث وجد بعض الحاكمين في نفسه الجرأة أن يقول: من قال لي: «اتق الله»، قطعت عنقه!!!^(١)

وهنا وجد بعض هؤلاء فيما سمّوه بحدّ الردّة صارماً بتاراً يقطعون به الألسن، ويرهبون به خصومهم ومعارضهم. وسنورد في هذا الفصل نماذج من شهر هذا السلاح بوجههم من علماء مصلحين، ورجال دولة معارضين، ومتكلمين ومتصوفة وفلاسفة، ورجال فرق، وما إلى ذلك.

إن هناك فتناً كثيرة قد وقعت في تاريخ الأمة نتجت عن الفرقة والاختلاف وتناسي القرآن المجيد وسيرة رسول الله ﷺ وضعف الاعتصام بكتاب الله، وفك الارتباط والتلازم بين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم فك الارتباط بين الكتاب والسنة والفقه، ثم فك الارتباط بين العقيدة والشريعة، ثم فك الارتباط بين فقه الأئمة المتقدمين والمتأخرين، ثم اعتبار مذاهب الأئمة ونصوصهم مثل خطاب الشارع يصيبها ما يصيب خطاب الشارع في أنظارهم من تعادل وتعارض ونسخ وما إلى ذلك.

وبذلك أشبهوا أهل الكتاب الذين سبقوهم حين ضلّوا ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكُرُوا بِهِ﴾ ونقضوا ميثاقهم مع الله - تعالى - ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكُرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكُرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٣ - ١٤].

(١) نقل هذا القول أو نحوه عن عبد الملك بن مروان، وعن أبي جعفر المنصور ومن إليهم.

ففسوة القلوب التي جعلت بعض المسلمين يسارعون في تكفير إخوان لهم لمجرد اختلافهم معهم في بعض الأمور، وتبلغ بقلوبهم القسوة حد استباحة دمائهم، والإفتاء بقتلهم، كل تلك الظواهر الإجرامية الفاسدة التي نشاهدها بين طوائف المسلمين ومذاهبهم وفرقهم القديمة وحركاتهم المعاصرة وتجمعاتهم وأحزابهم إنما هي ظواهر طبيعية تصيب من ضلّوا ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ من أولئك الذين يتجاهلون الأسباب الحقيقية للتأليف بين قلوبهم وفي مقدمتها وعلى رأسها الاعتصام بحبل الله، منطلقاً وسيرورة وغاية، فيدعهم الله لأنفسهم، ويغري بينهم العداوة والبغضاء، والفرقة والخلاف والشقاق، ولن تجتمع قلوبهم - بعد ذلك - ولن يؤلف بينهم بأية وسيلة من الوسائل إلا إذا عادوا إلى رشدهم، ورجعوا إلى الأمر الأول الذي اجتمعت عليه قلوبهم والتفت عليه أفئدتهم، وتوحدت به كلمتهم، وهو في الحالة العربية الإسلامية كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لقد انفرط عقد الأمة بعد أن هجرت الكتاب واستولت عليها الفتن. فمن فتنة قتل الخليفة الثالث؛ شهيد الدار، إلى فتنة الجمل وصفين، ونشوء الفرق والمذاهب، إلى تلك الفتن المتتابعة بين الأسر الطامحة إلى الحكم من الأمويين وخصومهم، ثم الأمويين والعباسيين، ثم العباسيين والعلويين، إلى فتن الفرق الكلامية من أشاعرة ومعتزلة وأهل الرأي وأهل الحديث، والحنابلة والشافعية والسنة والشيعة والسلاجقة والبويهيين والعثمانيين والصفويين، إلى الفتن والاضطرابات المعاصرة، وما أكثرها بين السنة والشيعة، والصوفية والسلفية، والسلفيين وبقية المسلمين، والماضويين والعصرانيين، إضافة إلى الصراع بين الفئات والأحزاب الإسلامية السياسية. وفي هذه الصراعات - كلها - لم تغب أفكار الغلو والتكفير والالتهام بالردة والنفاق والمروق والخروج والانحراف، وما إلى ذلك. ولم تبد إلى الآن نهاية واضحة لهذه الأحوال الشاذة؛ لأن الناس ما يزالون يتجاهلون الدعامة الأساس التي تقوم وحده هذه الأمة عليها، ألا وهي الاعتصام بحبل الله وبكتاب الله.

وحين نستعرض ظاهرة الاتهام بالردة والتكفير وضحاياها نجد قائمة طويلة غطت سائر العصور الإسلامية ولم تتوقف بعد؛ لأن الناس لم يرجعوا بعد إلى الاعتصام بالكتاب.

وهذه الوقائع تقدم لنا نماذج من ضحايا ظاهرة الاتهام بالردة نذكر بها ونشير إلى غيرها وهي مجرد عينة ؛ إذ لو أردنا الاستقصاء لاحتجنا إلى كتابة مجلدات في هذا الباب. فمن تلك الوقائع :

● حين سيطر المعتزلة بقيادة المأمون الخليفة العباسي أعلنوا مقاتلتهم ، وهي القول بخلق القرآن بحجة أن القول بقدم القرآن وكونه صفة من صفات الله سوف يؤدي إلى القول بتعدد القدماء الذي قد يجرّ إلى الشرك الذي وقع النصارى فيه حين أشركوا السيد المسيح بالله باعتباره كلمته. وقد بدأت عمليات اضطهاد لعلماء الأمة من غير المعتزلة استمرت ثمانية عشر عاماً شملت فترة خلافة المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق ، ولم توقف هذه المحنة إلا في عهد المتوكل الذي تأسس في عهده ما عرف بتيار أهل السنة والجماعة ، ودارت الدائرة على المعتزلة فبدأت مرحلة اضطهادهم من أولئك الذين سبق أن أساءوا إليهم في سنوات حكمهم ونفوذهم. لقد اضطهدوا في تلك الأعوام السابقة كل أولئك الذين لم يروا رأيهم في القرآن المجيد. وفي مقدمتهم كان الإمام الجليل أحمد بن حنبل.

١- ومن أبرز من أعدم في تلك المرحلة إمام آخر لم يكن أقل من الإمام أحمد مكانة وعلمًا وصلابة ذلك هو الشهيد أحمد بن نصر الخزاعي ، وينقل المؤرخون لتلك الفترة شذرات من تلك المحاكمة التي أخضع الخزاعي لها في عهد الواثق.

يقول ابن الجوزي في تاريخه : « أتى بأحمد بن نصر الخزاعي أمام الخليفة الواثق يوم السبت غرة رمضان من عام (٢٣١هـ). قال له الخليفة : ما تقول في القرآن؟

قال الخزاعي : هو كلام الله !!

قال الخليفة : أمخلوق هو؟

قال : هو كلام الله !!

قال الخليفة : أفترى ربك يوم القيامة؟

قال : كذا جاءت الرواية.

قال : ويحل كما يرى المخلوق هو؟

قال : هو كلام الله !!

قال : المحدود المجسوم ويحويه مكان ، ويحصره الناظر؟

وأردف : أنا أكفر بربّ هذه صفته !!!

ثم التفت لمن حوله من شيوخ المعتزلة ، فقال : ما تقولون فيه؟

فقال عبد الرحمن بن إسحاق القاضي : هو حلال الدم !! وقال جماعة الفقهاء من حوله مثل ما قال القاضي. فظهر ابن أبي داود شيخ المعتزلة - آنذاك - وكان كارهاً لقتله ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، شيخٌ لعل به عاهة أو تغيّر عقله ، يؤخّر أمره ، ويستتاب ، فقال الوثائق : ما أراه إلاّ مؤذناً بالكفر قائماً بما يعتقده منه. ودعا الوثائق بالصمّامة - سيف عمرو بن معديكرب - وقال : لا يقوم أحد معي فأنيّ أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربّاً لا نعبده ، ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها. ثم أمر بالنطح فأجلسه عليه وهو مقيد وأمر بشدّ رأسه بحبل ، وأمرهم أن يمدّوه ، ومشى إليه حتى ضرب عنقه ، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقيّ أياماً وفي الجانب الغربيّ أياماً. وعلقت ورقة في أذنه فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك دعاه عبد الله الإمام هارون الوثائق بالله - أمير المؤمنين - إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه فأبى إلاّ المعاندة فعجله الله إلى ناره ».

وظل رأس أحمد بن نصر مصلوباً معلقاً في بغداد وجسده مصلوباً معلقاً في سامراء أياماً ، ثم جمع رأسه إلى جسده ودفن !!

٢- أبو حيّان التوحيدي : علي بن محمد بن العبّاس المتكلّم الصوفيّ ، ترجم له ابن السبكي^(١) وغيره ، وقد جاء في ترجمته أن الوزير المهلبيّ طلبه (أي لقتله) فاستتر منه ، ومات في الاستتار. وقد حمل الذهبيّ^(٢) عليه ، ووصمه بسوء العقيدة واستحقاقه للقتل. ودافع ابن السبكي عنه ، وقال : « الحامل للذهبيّ على الوقعة في التوحيديّ ، مع ما

(١) السبكي ، عبد الوهاب بن علي ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : الطناحي والحلو ، القاهرة : مطبعة البايي الحلبي ، ط ١ ، ١٩٦٤م (٥ / ٢٨٦).

(٢) الذهبي ، محمد بن أحمد ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : الأرناؤوط والعرقسوسي ، بيروت : الرسالة ، ط ١ ، ١٩٨٣م (١٧ / ١١٩).

يبطئه من بغض الصوفية، هذان الكلامان. ولم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيّان ما يوجب الوقعة فيه، ووقعت على كثير من كلامه، فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنّه كان قويّ النفس مزدريّاً بأهل عصره. ولا يوجب هذا القدر أن يُنال منه هذا النيل». وحملة الذهبيّ على أبي حيّان جزء من ظاهرة سلبية أخرى، إضافة إلى ما ذكره ابن السبكي، وهي أن هؤلاء الذين يوضعون تحت أنظار حاكم من هؤلاء يغلب أن تعرّض سمعتهم للمطاعن التي تجعل من مطاردتهم أو إعدامهم مطلباً لفريق آخر من العلماء ليظهر الحاكم بمظهر البريء - الذي ينفذ فتاوى أهل العلم، فالحاكم هو صاحب المبادرة، وليس العالم. وقد أعد أخونا د. محمد همام رسالة جامعيّة عقد فيها فصلاً في بيان استقامة عقيدة التوحيدي، وأن كل ما اتهم به لا يثبت لبحث^(١).

٣- محمد بن عبد الكريم بن أحمد: أبو الفتح - المعروف بالشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل (ت سنة ٥٤٨ هـ). واتهم بالميل إلى الإسماعيلية، ونسب إلى التخبّط في الاعتقاد، والميل إلى أهل الزيغ والإلحاد. وقد نفى ابن السبكيّ عنه كل تلك التهم التي كادت تذهب برأسه لولا كثرة العارفين لفضله، المؤكدين لسلامة اعتقاده^(٢).

٤- محمد بن علي بن الحسن بن علي الميانجي: المكنى «بأبي المعالي» ابن أبي بكر من أهل خراسان، كان يلقب «بعين القضاة». قال فيه ابن السمعاني: «أحد فضلاء العصر، ومن به يضرب المثل في الذكاء والفضل.. كان فقيهاً فاضلاً، شاعراً مفلقاً، رقيق الشعر، وكان يميل إلى الصوفيّة.. وكان الناس.. يتبركون به.. وكانت بينه وبين أبي القاسم الوزير منافسة.. فكتب عليه محضراً، والتقط من أثناء تصانيفه ألفاظاً شنيعة تنبو عن الأسماع. قال ابن السبكيّ فكتب جماعة من العلماء خطوطهم بإباحة دمه.. ثم قال: نسأل الله الحفظ في إطلاق القلم بما يتعلق بالدماء من غير بحث، والمسارة إلى الفتوى بالقتل!! فقُبض على عين القضاة أبو القاسم الوزير المذكور آنفاً، وحُمل إلى بغداد مقيداً. قال ابن السبكي: ورأيت رسالته التي كتبها من بغداد إلى أصحابه بهمذان - التي لو قرئت على الصخور لانصدعت من الرقة والسلاسة، فردّ إلى همذان، وصلب فيها ليلة الأربعاء السابع من جمادى الآخرة سنة (٥٢٥ هـ) خمس وعشرين

(١) همام، محمد. أبو حيان التوحيدي ناقداً. رسالة دكتوراه. المغرب، مراكش. جامعة القاضي عياض، ١٩٩٨.

(٢) راجع تفاصيل ما أورده ابن السبكي في «الطبقات»، (٤ / ٧٩ وما بعدها).

وخمسائة، وحين قُدِّم ليصلب تلا قوله - تعالى - : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] ^(١).

٥- الكيهراسي : وهو زميل الغزالي وقرينه في الدرس ، وقد درّس في مدارس عديدة ، وأشيع أنّه يرى رأي الإسماعيلية. وطلب ، وكاد يُقتل لولا أن بعض الأشاعرة دافعوا عنه وقالوا بأنّ المعنيّ بتلك التهم والمقصود بها ليس الكيهراسي الأشعري بل صاحب قلعة ألموت ابن الصباح الباطني الإسماعيلي الذي كان يلقب بـ «الكيّا» أيضًا. والكيهراسي كان كثير المناظرة لعلماء الحنابلة في زمانه ، وربما كان بعض خصومه وراء تلك الشائعات التي كادت تؤدي به ^(٢).

٦- أبو نصر منصور بن علي بن عراق الجعدي : كان يسكن مدينة المنصورة من مدن خوارزم ، وكان غنيًا ذا مال كثير ومضيفًا ، حتى إنه كان يستضيف في بعض الأحيان في الليلة الواحدة ما يقرب من ألف من الضيوف ، فيكرمهم ويتعهد دوابهم ، حتى إن السلطان أبا القاسم محمود حين دخل خوارزم نزل عليه ضيفًا في ضيافته ، فاستضافه هو وجنوده ومراكبهم وخيولهم. ويبدو أن السلطان حين رأى القدرة المالية للرجل ، وغناه عن السلطان ، ومحبة الناس له ، اتهمه بسوء الاعتقاد بحجة أنه لم ير في ضيعته على اتساعها مسجدًا واحدًا ، علمًا بأن مدينة المنصورة هذه التي يسكنها اشتهرت بأن فيها اثني عشر ألف مسجد ، في كل سكة أو زقاق مسجد. ولم يشفع للرجل استضافته لذلك السلطان ولا خدمته له ، فأمر بصلبه هو ومن اتهمه بالتهمة نفسها سنة (٤٠٨ هـ) ثمان وأربعمائة.

٧- إبراهيم بن عمر بن حسن بن رباط بن علي بن أبي بكر البقاعي : برهان الدين ، صاحب تفسير «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور». وقد نال منه علماء عصره لتصنيفه ذلك التفسير ، وأنكروا عليه الاستشهاد بالتوراة والإنجيل ، فأغروا به الحاكمين وكفّروه ، ورتّبوا دعوة عند القاضي المالكي ، فأراد القاضي المالكي الحكم

(١) ابن السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، (٤ / ٢٣٦ - ٢٣٧).

(٢) المرجع السابق ، (٧ / ٢٣١).

بكفره وإراقة دمه لولا شفاعاة العلماء والقضاة له ، وحكمهم بإسلامه ، مما جعل القاضي المالكي يتردد في إعدامه^(١).

٨- ابن الآبار الأندلسي : الذي قتل صبراً في أواخر ستين وستمائة^(٢).

٩- أحمد بن إبراهيم أبو جعفر الأندلسي الحافظ النحوي : ولد سنة ٦٢٧ وتوفي سنة ٧٠٨ هـ. وصفه معاصروه بأنه كان ثقة قائماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قامعاً لأهل البدع ، معظماً عند الخاصة والعامة. وقد أودى وهُجّر من وطنه^(٣).

١٠- صدقة بن الحسين أبو الفرج ابن الحداد البغدادي الحنبلي : الناسخ الفرضي. وقد اتهم بسوء العقيدة ليله إلى الفلسفة. وكان ممن شنع عليه ابن الجوزي لما بينهما من اختلاف ومباينة. وقد أثنى عليه نفر آخر ، منهم محدث بغداد المحب بن النجار في تاريخه ، حيث قال : له مصنّفات حسنة في أصول الدين ، وقد جمع تاريخاً على السنين ذكر فيه الحوادث والوفيات^(٤).

١١- ابن زرقون شيخ المالكية : أبو الحسين محمد ابن الإمام الكبير أبي عبد الله محمد سعيد بن أحمد الأنصاري الإشبيلي ، ابن زرقون. وقد برع في الفقه ، وصنّف كتاب «المُعَلَّى في الرد على المُحَلَّى». وكان صاحب الغرب وقتها ، يوسف بن يعقوب ، ظاهرياً يلزم الناس بأخذ الفقه من الكتاب والسنن على طريقة أهل الظاهر ، وبالغ في ذلك حتى منع من قراءة الفروع. فلما ظفر السلطان بابن زرقون ، وبالعالم آخر يُقرئان الفروع ، أخذهما وحبسهما وأحرق كتبهما^(٥).

١٢- سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الآمدي : الحنبلي ثم الشافعي. قال عنه سبط بن الجوزي (مرآة الزمان : ٨ / ٦٩١) : لم يكن في زمانه من

(١) الشوكاني ، محمد بن علي ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة : مطبعة السعادة ، ط ١ ، ١٣٤٨ هـ (١ / ١٩).

(٢) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، (٢٣ / ٣٣٧).

(٣) الشوكاني ، محمد بن علي ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، (١ / ٣٣).

(٤) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، (٢١ / ٦٦ - ٦٧).

(٥) المرجع السابق ، (٢٢ / ٣١١).

يجاريه في الأصلين وعلم الكلام ، وكان يظهر منه رقة قلب وسرعة دمعة. وكان أولاد العادل كلهم يكرهونه لما اشتهر عنه من علم الأوائل والمنطق. وأخرجه الأشرف من التدريس في العزيزية ، ونادى في المدارس : من ذكر غير التفسير والفقه ، أو تعرض لكلام الفلاسفة نفيتُهُ ، فأقام السيف خاملاً في بيته إلى أن مات ، وذلك بعد أن اتهم في القاهرة بالردة ، وهرب متخفياً إلى الشام.

١٣- كُنْيز: كان خادماً للمنتصر بالله ابن المتوكل ، فلما مات مولاه خرج إلى مصر. وكان يُقرئ الفقه بجامع دمشق على مذهب الشافعي بعد أن أقام بمصر مدة يذبُّ عن مذهبه وينظر المالكيين ، حتى سعوا به إلى أحمد بن طولون ، وقالوا : إنّه جاسوس قدم من بغداد فحبسه ، فلم يزل في الحبس سبع سنين حتى مات ابن طولون ، فأخرج من السجن ومضى إلى الإسكندرية ثم إلى الشام^(١).

١٤- محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد التلمساني : القرطبي الأصل ، (ت: ٧٧٦هـ) واشتهر بلسان الدين بن الخطيب. وكان بارعاً في الطبّ والمنطق والحساب ، وفاق أقرانه في الشعر. وقد قرّبه سلطان مراکش محمد بن أبي الحجاج حتى انفرد بتدبير أمور المملكة ، مما أوغر صدور جماعة من معاصريه ، الذين سعوا به عند السلطان محمد حتى أذن لهم في الدعوى عليه بمجلس الحاكم ، وحُكم عليه بالزندقة ، وأريق دمه ، وأودع السجن. وقد وجد بعدها مخنوقاً ، فلما دُفن لم يلبث غير ليلة حتى عُثر عليه محروقاً على شفير قبره. ولعل قتله ثم التمثيل به على الصفة المذكورة دليل على الأخطاء التي صار يرتكبها بعض الحكام ، ويريقون بها دماء المسلمين بلا قرآن ولا برهان^(٢).

١٥- صدر الدين بن الوكيل وابن المرحل : (ت: ٧١٦هـ). محمد بن عمر بن علي ابن عبد الصمد بن عطية بن أحمد الأموي. وكان بارعاً في الذكاء والحفظ ، حتى أفتى وهو ابن عشرين سنة ، وكثر حاسدوه حتى رتبوا دعوى ضده أمام القاضي في أمور رموه بها ، لكن القاضي سليمان الحنبلي حكمَ بصحة إسلامه ورفع التعزير عنه ، وأبقاه

(١) ابن السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، (٢ / ٧٩).

(٢) الشوكاني ، محمد بن علي ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، (٢ / ١٩١).

على وظائفه. ودسّ أعداؤه له عند السلطان الناصر حتى عزله من جميع جهاته التي كان يُدرّس فيها، لكن السلطان فطن بعدها لتلك الوقعة فعينه في وظائف كثيرة واشتهر صيته. من مصنفاته كتاب «الأشباه والنظائر»^(١).

١٦- أبو الحجاج جمال الدين الإمام الكبير الحافظ المزيّ: (ت: ٧٤٤هـ). يوسف ابن الزكي عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك. كان متقناً للغة والتصريف، ومتبحراً في علوم الحديث، حتى ولي التدريس في دار الحديث الأشرفية. وقال عنه ابن تيمية «لم يلها من حين بنيت إلى الآن أحقُّ بشرط الواقف منه»، وقال الذهبي «ما رأيت أحداً في هذا الشأن أحفظ منه». وقد ناظر الشافعية مرة مدافعاً عن ابن تيمية، فرفعوا أمره إلى القاضي الشافعي فأمر بسجنه ثم أفرج عنه، وأمر النائب أن ينادي بأن من يتكلم في العقائد يُقتل. من مصنفاته «تهذيب الكمال»، و«كتاب الأطراف»^(٢).

وهذه الأسماء غيض من فيض، ولو استقرينا كتب التراجم والطبقات والوفيات والتاريخ لخرجنا بأعداد كبيرة من العلماء والصوفيّة والفقهاء الذين تعرضوا للاضطهاد والنفي والاتهام بالردة والزندقة والانحراف عن الدين. والأسباب الحقيقيّة وراء ذلك انحرافهم عن سلطان ما، أو تبنيهم أقوالاً ومذاهب تخالف ما تتبناه الحاشية وعلماء السوء.

ولو استعصم الناس بالقرآن المجيد، ولم ينحرفوا عن آياته، ووقفوا عند حدوده، فأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، لم يزيدوا على ذلك ولم ينقصوا، لحفظوا الأمانة، وصانوا الملة، وعزّوا ونصروا، وحالوا دون بلوغ الأمانة هذه المآلات المرفوضة. والله أعلم.



(١) المرجع السابق، (٢ / ٢٣٤).

(٢) المرجع السابق، (٢ / ٣٥٣).

خاتمة

وبعد : فهذه إشكالية الردّة كما رأيناها في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ وكذلك في أقوال الفقهاء ومذاهبهم. وقد تبين لنا بعد البحث الدقيق ومعايشة هذه الإشكالية فترة طويلة من الزمن : أنّ القرآن والسنة ، بل وفقهنا الإسلامي الأكبر ، القائم على كتاب الله مصدراً منشئاً ، وسنة نبيه ﷺ مصدراً مبيّناً : أنّ الإنسان المكرّم المستخلف المؤمن أكبر عند الله وأعزُّ من أن يكلفه ويسلب منه حرية الاختيار ، بل إن جوهر الأمانة التي حملها ، والتي استحق بها القيام بمهمة الاستخلاف ، إنّما يقوم على حرية الاختيار التامة الكاملة : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ ، ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ ، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ ، ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ وبالتالي فإنّه لا يمكن أن يقرّر القرآن المجيد فيما يزيد عن مائتي آية من آيات الكتاب الكريم حرية الاختيار ، ثم يُعاقب بتلك العقوبة الصارمة من مارس تلك الحرية - دون أن يعتدي على أحد سوى نفسه ، أو يرتكب آية جريمة أخرى مصاحبة لتلك الضلالة البشعة التي سقط فيها.

كما تبين لنا من خلال البحث أن فقهاءنا الكرام الذين ذهبوا إلى إثبات هذه العقوبة قامت في أذهانهم تلك الملازمة القائمة على الأغلب المشاهد في عصورهم : من أنّ الردّة الدينية كثيراً ما تكون ثمرة تحول شامل لدى الإنسان عن الولاء للأمة ، والقبول بنظامها ، واحترام شرائعها ، والانتماء إليها ثقافياً وحضارياً ، والخضوع لقوانينها ونظمها ، ثم يجعل ، بعد ذلك الفصام ، البعد عن الدين والكفر به بمثابة الإعلان عن القطيعة التامة مع كل ما يقوم عليه كيان الأمة التي كان ينتمي إليها. ولذلك فإنّهم قد ذهبوا إلى إقرار ذلك الحدّ وتلك العقوبة...

أما لو أنّ الأمر أخذ على أنّه مجرد تغيير في الاعتقاد (كليّ أو جزئيّ) ، من غير أن

تصحبه جرائم أخرى ، فما كان من الممكن أن يقولوا بهذه العقوبة التي ناقشنا كل ما يتعلق بها ، وما استدلّ به عليها من أدلة أو أمارات تؤدي إلى برد اليقين بأن شريعة التخفيف والرحمة ، ورفع الحرج ، وتكريم الإنسان ، واحترام حرّيته وصيانتها ، والمحافظة عليها واعتبارها من ضرورات التزكية ، أسمى من أن تضع عقوبة دنيوية تبلغ مستوى القتل على ممارسة تلك الحرّية.

ولعلنا بما فعلنا قدمنا نموذجاً للدراسات الجادة التي تشتد حاجتنا إليها في مراجعة تراثنا بأنفسنا ، لئلا يبقى هذا التراث نهباً للجاهلين ، والذين لا صبر لهم على البحث العلمي الجاد. وإذا كنّا قد فعلنا هذا في ظل أوضاع لا تحفى علينا تعقيداتها ، وفي ظل هيمنة عالميّة تقوم على قيم مغايرة ، من ليبراليّة وعلمانيّة وما إليهما ، فإننا ما فعلنا ما فعلناه ليتخذ منه أولئك الذين يحاولون اجتيال المسلمين عن دينهم ، واستغلال حالة الضعف والتراجع في أمتنا ، ليغروا بعض المسحوقين من أبنائنا - بالفقر والجهل والمرض واستعلاء الآخرين ، بإساءة الظن بدينهم وعقيدتهم وشريعتهم الغراء ، بل على العكس من ذلك أردنا بما فعلنا تحصين المسلمين ، وتعزيز إيمانهم بشريعتهم وعدالتها ومقاصديّة كل حكم فيها ، وأنها شريعة لا حرج فيها ولا إصر ولا أغلال ، بل هي شريعة تخفيف ورحمة منفتحة على العالم - كله - تستطيع استيعاب آية حضارة وأية ثقافة مهما كانت ، وترقيتها وتهذيبها ، والتصديق عليها ، وتجاوز نسيبها وقصورها ، بعد تنقيتها وتزكيتها. فإذا شاع الوعي الحقيقيّ على مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية والقيم العليا التي جاء بها الأصلان العظيمان ، فذلك سوف يشكل مناعة لدى الأمة لا يمكن أن تتشكّل بمجرد التعصّب ، والاندفاع نحو الدفاع بدون وعي وأسلحة تمكّن من دفاع مشرّف واع هادف يفرض على الخصم وعلى المعاند احترام الانتماء إليها. نسأل الله العليّ القدير أن يتقبل هذا الجهد المبارك وينفع به ، ويعيننا فيما بقي لنا من أيام في هذه الحياة على مواصلة الجهود في مراجعة تراثنا الإسلاميّ الغنيّ ، ورد أمتنا إلى كتاب الله وسنة نبينا رداً جميلاً. والله وليّ التوفيق. فمن وجد فيما قدمناه خيراً فليحمد الله ، ونرجو أن لا يجرمنا دعوة صالحة ، ومن وجد هفوة أو هنة أو خطأ فليستغفر الله لنا وليدع بالهداية والتوفيق والسداد والرشاد. «سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين».